قراءة في تفسير ابن كثير

سورة المجادلة

أ. أناهيد بنت عيد السميري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

كنا في لقاء أمس قد مر معنا شأن مهم من تربية الله وتأديبه للمؤمنين، وإرشاد عظيم للشجاعة الإيمانية، إرشاد عظيم للقوة النفسية، وهذا تبين من خلال:

نهي المؤمنين عن النجوى بأمور تفسد عليهم نفوسهم.

وأمرهم بالنجوى بأمور تصلح لهم نفوسهم وتصلح مجتمعهم.

وهنا لا بد أن نظهر شأن مهم في مسألة التناجي؛ "التناجي": يكون اتصالًا بين اثنين أو أكثر، وهذا التناجي ما يكون إلا في أمر مشترك؛ فالنفوس عند الاجتماع والاتصال بمن يناسبها يحصل لها حالة من التعاضد والتظاهر، يتقوّى ويتأيّد الإنسان مع من هو مثله في الفكرة، يتقوون بالسبب الذي يربطهم، فيحصل بذلك اجتماع يسبب القوة، فإذا كانت

النفوس شريرة فهم يتناجون بالشر ويزداد فيهم الشر، ويقوى فيهم هذا المعنى الذي يتناجون به، في مقابل ذلك لو كانت النفوس خيِّرَة سيتناجون بالخير، ويزداد فيهم الخير، ويقوى هذا المعنى الذي يتناجون به بالاتصال والاجتماع؛ ولذلك نهى الله -عزَّ وجلَّ- عباده المؤمنين عن أن يتناجوا (بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ)، وهذه الآثام التي يرتكبها الإنسان تكون نتيجة رذائل وشهوات في النفس، والعدوان أيضًا رذيلة لكنها تأتي من قوة الغضب، فحين يجتمع اثنان أو ثلاثة ويتناجون في أمر متصل برذيلة الشهوات، فيخططون ويجتمعون على أن يفعلوا؛ تحصل قوة مختلفة عن قوة الإنسان وحده، وكذلك في العدوان؛ تقوى قوته بجماعة يجتمعون معه، وكذلك في معصية الرسول، في معصية الرسول هنا تجد أن هذه الرذيلة تتصل بالجهل وغلبة الشيطان على الإنسان فيعصي الرسول، معنى ذلك أن الإنسان قد يطرأ عليه أمور يقع فيها، ذنوب يقع فيها، لكن حين يتناجى مع غيره في ذلك يقوى الشأن، يقوى الشر، ومن أجل أن نتصور هذا الأمر، تصور كيف أن الإنسان، وهو معه شيطان، يجتمع بإنسان آخر، والإنسان الآخر معه شيطان، ويجتمع بثالث والثالث معه شيطان! فإذا اجتمع ثلاثة من الإنس في نفوسهم شر سيكون معهم ثلاثة من شياطين

الجن تزيد هذا الشر شرًا! وهكذا كلما كثر عدد الناس وفي نفوسهم شر تمكنت منهم شياطينهم، واجتمعت عليهم؛ فكانوا هم -بما في نفوسهم من رغبات- مع شياطينهم مجتمعين.

لذلك في مقابل هذا الشأن لما نهى الله المؤمنين عن التناجي بهذه الرذائل المذكورة، أمرهم بالتناجي بالخيرات لأجل أن يتقووا بالهيئة الاجتماعية. في الصورة الاجتماعية يكون هناك تعاون على البر والتقوى، ويكون هناك قوة لأهل الإيمان، وكلما ازدادت اجتماعاتهم ازدادت قوتهم النفسية والاجتماعية؛ ولذلك الاجتماع على مجالس الذكر، والاجتماعات المتكررة لنشر الحق، الواجب علينا أن نحتسبها على الله ونعتبرها من النجوى التي أمر الله بها.

اليوم شأن الاجتماع معروف، الناس يرتبون اجتماعات، أهل الخير وأهل الشر يرتبون اجتماعات، فاجتماعات أهل الخير تحت أمر الله -عزَّ وجلَّ-: (وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى) فلنحتسبها على الله، (وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ) يعني الفضائل التي هي ضد الرذائل، نتناجى بالصالحات والحسنات لأنفسنا ولغيرنا، فليحتسب كل إنسان يجتمع من أجل نشر الحق أنه يأتمر بهذه الآية: (وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى) والبر: الإقدام على الفضائل. والتقوى: اجتناب الرذائل.

وقد وردت الأحاديث -كما ذكر ابن كثير في ذلك- وبقيت نقطة مهمة ذكرها ابن كثير بالمناسبة -وهي مناسبة طيبة لذكر هذا الخبر- كما قرأنا أمس، أن:

صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِز قَالَ: كُنْتُ آخِذًا بِيَدِ ابْنِ عُمَرَ، إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- يَقُولُ فِي النَّجْوَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

وهنا مناسبة مهمة، فابن كثير أورد هذا الحديث الذي سنسمعه الآن في الكلام عن النهي عن النجوى في الإثم والأمر بالنجوى في الخير، رغم أن الخبر الذي سيذكر يتصل بالآخرة لكن -والله أعلم- لصلة بين الأمرين، سيتبين الآن:

قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفه وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ.

فهذه نجوى بين العبد الضعيف والرب العظيم -سبحانه وتعالى- وهذه النجوى فيها من إكرام المؤمن ورفع مقامه وستره ما فيها، يطول الحديث عنها، لكن فلنتأمل هذه النجوى وآثارها على نفوسنا هنا في الدنيا قبل الآخرة، كيف يسترنا الله من الناس! هو مؤمن لكنه مذنب وحقه الستر.

وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرّره بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنْ قَدْ هَلَكَ، قَالَ الله -عزَّ وجلَّ- له: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. ثُمَّ يُعْطَى كتابَ حَسَنَاتِهِ، فما أعظمها من نجوى.

ويقابل هذا حال الكفار والمنافقين، يقول -صلَّى الله عليه وسلَّم-: وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادِ: "هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ". لا ستر لهم ولا كرامة، وإنما فضيحة.

وبهذا نتصور أن هذه النجوى -التي هي عمل للإنسان في الدنيا- إن كان بخير وصلاح، وإن كان الإنسان من طبعه ومسلكه أن يستر على نفسه إذا أذنب، يستر على المؤمنين إذا رأى منهم عيبًا أو معصية، ولا يتناجى إلا بخير، وإذا رأى من نفسه أو من غيره شيئًا؛ ستره ولم يفضحه؛ كان أهلًا للستر في الآخرة، حتى لو كان صاحب ذنب فسِتْر الله عليه، والنجوى هنا تكون من عظيم فضل الله على الخلق. نسأل الله عزَّ جلَّ أن يسترنا أحياء وأمواتًا.

ثم أتى الخبر عن هذه النجوى ومقصود أهل الباطل منها، فقال -عزَّ وجلَّ- : (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ) والمقصد أن يوقع الحزن في الذين آمنوا. وهنا يجب أن نؤكد على مطلب

الشرع: أن تكون صاحب شجاعة إيمانية، مطلوب منك شرعًا أن تكون صاحب شجاعة إيمانية، بمعنى: أن هذه الأمور من الطبيعي أنها تحزن، لكن رب العالمين وصانا بهذه الوصايا، كما مر معنا. وذكر ابن كثير الثلاث وصايا:

الأولى: **أن نعلم أنها لا تضر.**

الثانية: **الاستعاذة بالله.**

الثالثة: **التوكل على الله.**

وهكذا مع كل الأحزان وكل وساوس الشيطان، فلنعاملها بنفس المعاملة؛ نشعر بأنها لا تضرنا فنصرف تفكيرنا عنها ونبذل جهودنا لتوقيف تفكيرنا ونستعيذ بالله من الشيطان من أجل ألا يتسلط الشيطان ويكررها علينا -لأن هذه هي طريقة الشيطان؛ أن يكرر علينا الفكرة حتى تكاد نفسنا أن تنفجر!- وندعو ربنا أن يصرف عنا هذه الفكرة، ونتوكل على الله.

فهذا مجمل ما مر معنا في الكلام عن النجوى الدالة على أنه -سبحانه وتعالى- قريب لعباده، ومن دلالة قرب الله لعباده في الدنيا: أنه معهم في نجواهم وسيظهر هذا القرب الخاص من المؤمن يوم القيامة، وربما كان هذا سبب إيراد ابن كثير للنجوى يوم القيامة.

نبدأ اليوم في الآية الحادية عشر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11))

موطن هذه الآية يمكن أن يكون سؤالًا عند القارئ لهذه الآيات الكريمات:

ما العلاقة بين "النهي عن النجوى التي فيها شر والأمر بالنجوى التي فيها خير" بمسألة "التَّفسُّح في المجالس"؟

ذكر المفسرون أوجه في ذلك، من هذه الأوجه: أنه -عزَّ وجلَّ- لما نهى عن التناجي والتسارر، كأنه فُهِم منه الاجتماع مع المؤمنين والارتباط معهم وعدم الانفراد عنهم؛ فهنا علم أن هناك جلوس مع الملأ، فذكر الله -عزَّ وجلَّ- آداب الجلوس مع الملأ، ورتّب على امتثالهم للجلوس بالطريقة التي يأمر بها -عزَّ وجلَّ-، فسحة لهم فيما يريدون التفسح، سواء كان في المكان أو الرزق أو الصدر، ومن هنا سيتبين أن هذه الآية فيها نموذج لسنَّة عظيمة من سنن معاملة الله لخلقه، وهو: أن الجزاء من جنس العمل، كما سيتبين من كلام ابن كثير.

وليبقى الأمر ثابتًا في ذهننا فآيات التَّفسُّح في المجالس مرتبطة بآيات النجوى لأن فيها آداب للجلساء، فلما كانت النجوى يمكن أن تكون بسبب الشيطان منشأ للكدر وتباعد القلوب، رب العالمين أمرنا -وهو سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم يعلمنا برأفته- أن نراعي حسن الأدب في الاجتماع؛ لأجل ألا يكون هناك سبب للافتراق والتباعد.

ونريد أن نتصور أنه حين يدخل أحد على مجلس قد اجتمع أصحابه فلا يجد من أحد التفات له، ولا يجد أحد يفسح له، بل كلّ يضنّ بمكانه ولا يسمح لأحد أن يقترب! فمن النتائج الطبيعية أن يخرج هذا وقد امتلأ صدره على هؤلاء، ويأتي آخر ويحصل معه نفس الموقف، وآخر ويحصل معه نفس الموقف، فبهذا ينقسم المجتمع، وهؤلاء الذين لم يجدوا فسحة ولم يجدوا أحدًا يرحب بهم يمكن أن يجتمعوا على عداوة من لم يفسح لهم، أو لم يفسح لهم أو لم يصدر منه ما يدل على قبولهم، وهذا يحصل على جميع المستويات.

التَّفسُّح في المجلس صورة واضحة؛ أن نكون مجتمعين، ثم يأتي من الخارج أحد فلا يجد أحدًا يرحب به ولا يقربه ولا يجلسه ولا يفسح له. ومثله حين تدخل على أحد في عمل، يكون هؤلاء موظفين سابقين وأنت تأتي عليهم موظف جديد؛ فلا يفسحون لك في المكان ولا تجد انشراح صدر منهم! فهذا

يفرِّق الأمة. تسكن في بيت جديد تجد الجيران يجتمعون ولا يهتمون أن يدخلوك في صفهم، وهكذا من ضيق النفوس التي تريد الشريعة أن يعالج الإنسان نفسه منها لأن هذا كأنه طبيعة للإنسان، ورب العالمين يريد منّا أن نغير هذه الطبيعة. فإذا كنت شخصًا في فريق، في مكان، في حي، ونزل عليكم من هو بمثابة الضيف، أو بمثابة الجديد عليكم فلتكن من المبادرين المرحبين الموسعين، ومن كانت هذه صفته فليبشر من رب العالمين بالفسح والتوسيع وسعة الصدر وسعة في الحياة وسعة في القبر، وسعة حين يأتي الأمر العظيم والجزاء الكبير من رب العالمين.

هذا المعنى يحتاج إلى تفكير في تفاصيله لأنه يكاد أن يكون شأن الحياة كلها فيها مواقف بصور شتّى تحتاج فيه إلى مفهوم "الفسح"؛ أن تفسح لغيرك، ونموذجها: الفسح في المجالس.

قال ابن كثير -رحمه الله-:

يَقُولُ تَعَالَى مُؤَدِّبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَآمِرًا لَهُمْ أَنْ يُحْسِنَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي الْمَجَالِسِ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ) وَقُرِئَ (فِي الْمَجْلِسِ)، (فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ) وَذَلِكَ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، كَمَا جَاءَ فِي

الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: "مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ".

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: "وَمَنْ يَسَّر عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّر اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، [وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ" وَلِهَذَا أَشْبَاهٌ كَثِيرَةٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: (فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ) .

كما هو واضح من كلام ابن كثير أن رب العالمين يؤدب عباده المؤمنين "يَقُولُ تَعَالَى مُؤَدِّبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَآمِرًا لَهُمْ أَنْ يُحْسِنَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي الْمَجَالِسِ" وهذا من الشواهد الكثيرة على أن الله يعلمنا ما ينفعنا، وهذا من كمال رحمته وتمام رأفته، وهذه أمور تتصل بالعادات دون أحكام العبادات؛ لكن لأن هذا الدين شامل كل شيء، فلو فهمنا هذا الدين جيدًا سنجد أن الحياة تستقيم، فرب العالمين يؤدبنا ويأمرنا أن يحسن بعضنا لبعض.

ثم علق ابن كثير على المقابلة الحاصلة في الآية؛ الأمر بالفسح والوعد أن يفسح لنا، وذكر هذه القاعدة المعروفة: "إن الجزاء من جنس العمل" وذكر نماذج عليها، بمعنى: أن المستقرئ لنصوص الشريعة في مسألة الثواب والعقاب سيجد شواهد كثيرة على هذه القاعدة؛ أن الجزاء من جنس العمل،

فضرب هو أمثلة: "مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا" هذا فعل الإنسان، "بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ" هذا فعل رب العالمين، الجزاء من جنس العمل، "بنى هنا مسجدًا" و"بنى الله له بيتًا في الجنة".

"وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" يسر ويسر.

"وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" ستر وستر، المسلم ستر ورب العالمين جازاه بنفس الأمر؛ ستره في الدنيا والآخرة، وشتان بين تيسير الله عليه في الدنيا والآخرة! وبين ستر الله في الدنيا والآخرة! شتان بين بيت في الجنة وبين مسجد في الأرض! لكن لأن ربنا شكور؛ يعطي على العمل القليل الأجر الكثير. لذلك ننظر إلى هذه الأمور ونرى أنها يسيرة مقابل ما سيكون من عند الله، وننظر إلى آخر الحديث: "وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ" الجزاء من جنس العمل؛ أنت تعين من معك وأنت محتسب على الله هذه الإعانة؛ رب العالمين يعينك.

ما أطيب هذه الوصايا! ما أحسن حال هذا المجتمع الذي يعامل الله! وبعد ذلك ذكر ابن كثير ما ورد من أسباب النزول، سنقرأها متتابعة وبعد ذلك ننتقل للآية التالية:

قَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا رَأَوْا أَحَدَهُمْ مُقْبِلًا ضَنّوا بِمَجَالِسِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُفْسِحَ بعضهم لبعض.

وقال مقاتل ابن حَيَّانَ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يَوْمَ جُمُعة وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- يَوْمَئِذٍ فِي الصُّفَّةِ، وَفِي الْمَكَانِ ضِيقٌ، وَكَانَ يُكْرِمُ أَهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَجَاءَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَقَدْ سَبَقُوا إِلَى الْمَجَالِسِ، فَقَامُوا حِيَالَ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. فَرَدَّ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ثُمَّ سَلَّمُوا عَلَى الْقَوْمِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ، فَقَامُوا عَلَى أَرْجُلِهِمْ يَنْتَظِرُونَ أَنْ يُوَسَّعَ لَهُمْ، فَعَرَفَ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ، فَلَمْ يُفْسَح لَهُمْ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، مِنْ غَيْرِ أَهْلِ بَدْرٍ: "قُمْ يَا فلان، وأنت يا فلان". فلم يزل يُقِيمُهُمْ بِعِدَّةِ النَّفَرِ الَّذِينَ هُمْ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى مَنْ أُقِيمَ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَعَرَفَ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- الْكَرَاهَةَ فِي وُجُوهِهِمْ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: أَلَسْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ؟ وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَاهُ قبلُ عَدَلَ عَلَى هَؤُلَاءِ، إِنَّ قَوْمًا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ وَأَحَبُّوا الْقُرْبَ لِنَبِيِّهِمْ، فَأَقَامَهُمْ

وَأَجْلَسَ مَنْ أَبْطَأَ عَنْهُ. فَبَلَغَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَالَ: "رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا فَسَح لِأَخِيهِ". فَجَعَلُوا يَقُومُونَ بَعْدَ ذَلِكَ سِرَاعًا، فَتَفَسَّحَ القومُ لِإِخْوَانِهِمْ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يوم الجمعة. رواه بن أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالشَّافِعِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَالَ: "لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ فَيَجْلِسَ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وتَوسَّعوا".

وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ نَافِعٍ، بِهِ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْمَجِيدِ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ مُوسَى، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ. أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَالَ: "لَا يُقِيمَنَّ أحدُكم أَخَاهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: افْسَحُوا". عَلَى شَرْطِ السُّنَنِ وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنَا فُلَيْح، عَنْ أَيُّوبَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ [أَبِي] صَعْصَعة، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ أَبِي يَعْقُوبَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَالَ: "لَا يُقِمِ الرجلُ الرجلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسْ فِيهِ، وَلَكِنِ افْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ"

وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ سُرَيج بْنِ يُونُسَ، وَيُونُسَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُؤَدِّبِ، عَنْ فُلَيْح، بِهِ. وَلَفْظُهُ: "لَا يَقُومُ الرجلُ لِلرَّجُلِ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَلَكِنِ افْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ" تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي جَوَازِ الْقِيَامِ لِلْوَارِدِ إِذَا جَاءَ عَلَى أَقْوَالٍ: فَمِنْهُمْ مَنْ رَخَّصَ فِي ذَلِكَ مُحْتَجًّا بِحَدِيثِ: "قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ" وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ مُحْتَجًّا بِحَدِيثِ: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتبوَّأ مَقْعَدَه مِنَ النَّارِ" وَمِنْهُمْ مَنْ فَصَّلَ فَقَالَ: يَجُوزُ عِنْدَ الْقُدُومِ مِنْ سَفَرٍ، وَلِلْحَاكِمِ فِي مَحَلِّ وِلَايَتِهِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قِصَّةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَإِنَّهُ لِمَا اسْتَقْدَمَهُ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- حاكمًا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَرَآهُ مُقْبِلًا قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ: "قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ". وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِيَكُونَ أَنْفَذَ لِحُكْمِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَأَمَّا اتِّخَاذُهُ دَيْدَنًا فَإِنَّهُ مِنْ شِعَارِ الْعَجَمِ. وَقَدْ جَاءَ فِي السُّنَنِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وَكَانَ إِذَا جَاءَ لَا يَقُومُونَ لَهُ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ

وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ فِي السُّنَنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- كَانَ يَجْلِسُ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ، وَلَكِنْ حَيْثُ يَجْلِسُ يَكُونُ صَدْرُ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يَجْلِسُونَ مِنْهُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ، فَالصِّدِّيقُ يُجْلِسُهُ عَنْ يَمِينِهِ، وَعُمَرُ عَنْ يَسَارِهِ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ غَالِبًا عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ؛

لِأَنَّهُمَا كَانَا مِمَّنْ يَكْتُبُ الْوَحْيَ، وَكَانَ يَأْمُرُهُمَا بِذَلِكَ، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- كَانَ يَقُولُ: "لِيَلِيني منكم أولوا الْأَحْلَامِ والنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ" وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِيَعْقِلُوا عَنْهُ مَا يَقُولُهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ أُولَئِكَ النَّفَرَ بِالْقِيَامِ لِيَجْلِسَ الَّذِينَ وَرَدُوا مَنْ أَهْلِ بَدْرٍ، إِمَّا لِتَقْصِيرِ أُولَئِكَ فِي حَقِّ الْبَدْرِيِّينَ، أَوْ لِيَأْخُذَ الْبَدْرِيُّونَ مِنَ الْعِلْمِ بِنَصِيبِهِمْ، كَمَا أَخَذَ أُولَئِكَ قَبْلَهُمْ، أَوْ تَعْلِيمًا بِتَقْدِيمِ الْأَفَاضِلِ إِلَى الْأَمَامِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ عُمَارة بْنِ عُمَيْرٍ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ وَيَقُولُ: "اسْتَوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِيَنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ والنُّهى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ". قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ فَأَنْتُمُ الْيَوْمَ أَشَدُّ اخْتِلَافًا.

وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ، إِلَّا التِّرْمِذِيَّ، مِنْ طُرُقٍ عَنِ الْأَعْمَشِ، بِهِ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا أَمْرَهُ لَهُمْ فِي الصَّلَاةِ أَنْ يَلِيَهُ الْعُقَلَاء ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، فَبِطَرِيقِ الْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ أَبِي الزَّاهِرِيَّةِ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَالَ: "أَقِيمُوا الصُّفُوفَ، وحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ، وسُدّوا الْخَلَلَ، ولِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ، وَلَا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ، وَمَنْ وَصَل صَفًّا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ الله" وَلِهَذَا كَانَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ -سَيِّدُ الْقُرَّاءِ-إِذَا انْتَهَى إِلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ انْتَزَعَ مِنْهُ رَجُلًا يَكُونُ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ، وَيَدْخُلُ هُوَ فِي الصَّفِّ الْمُقَدَّمِ، وَيَحْتَجُّ بِهَذَا الْحَدِيثِ: "لِيَلِيَنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى". وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فَكَانَ لَا يَجْلِسُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَقُومُ لَهُ صَاحِبُهُ عَنْهُ، عَمَلًا بِمُقْتَضَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ رِوَايَتِهِ الْحَدِيثَ الَّذِي أَوْرَدْنَاهُ. وَلْنَقْتَصِرْ عَلَى هَذَا الْمِقْدَارِ مِنَ الْأُنْمُوذَجِ الْمُتَعَلِّقِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَإِلَّا فَبَسْطُهُ يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- جَالِسٌ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَمَّا أَحَدُهُمْ فَوَجَدَ فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَدَخَلَ فِيهَا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَجَلَسَ وَرَاءَ النَّاسِ، وَأَدْبَرَ الثَّالِثُ ذَاهِبًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "ألا أنبئكم بِخَبَرِ الثَّلَاثَةِ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَآوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الثَّانِي فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ"

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَتَّاب بْنُ زِيَادٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَالَ: "لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا".

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ اللَّيْثِيِّ، بِهِ وَحَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

كل هذه النصوص التي سمعناها من نقل ابن كثير انتقلت بين ثلاثة أمور:

الأمر الأول: **سبب نزول هذه الآيات.**

وقد ذكر قتادة، وبعد ذلك ذكر مقاتل: أن هذه الآيات نزلت في مجالس الذكر -وعلينا أن ننتبه لهذه النقطة لأنه سيذكر بعد ذلك معنى جديد-:

"وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا رَأَوْا أَحَدَهُمْ مُقْبِلًا ضَنّوا بِمَجَالِسِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُفْسِحَ بعضهم لبعض."

وعلى ذلك أتى بعد ذلك ما نقل مقاتل ابن حيان عن موقف حصل في مجلس النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، سواء كان في مسجده أو في الصُّفة، وكيف أن البدريين دخلوا فلم يجدوا

مكانًا، إلى أن اضطر النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- إلى إقامة أحد، فاستغل أهل النفاق الموقف.

هذا الموقف يمكن أن نراه بسيطًا؛ أن يقام رجل من مكانه ليجلس غيره، لكن الحقيقة هو يؤثر في النفس ويشقّ الصف، فلا بد من ملاحظة هذه الأمور، ولا زلنا نكرر أن هناك سلوكيات النفس بطبيعتها تبغضها لأن فيها تقليلًا من قيمتها، وعدم احترام لكرامتها.

في هذا الموقف النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لما رأى حالهم دعا لهم، "رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا فَسَح لِأَخِيهِ" فلما دعا لهم هذه الدعوة وهم يطلبون رحمة الله فحصل منهم أنهم تفسّحوا.

الأمر الثاني: **حكم إقامة الإنسان من مكانه.**

ذكر ابن كثير تفصيلًا لمسألة حكم إقامة الإنسان من مكانه؛ ففي الأصل إقامة الإنسان من مكانه منهي عنه، إلا في أحوال منها أن يكون هذا المكان يجب أن يشغله أحد له وظيفة مثل كتّاب الوحي للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ومثل الصحابة الكرام ومراتبهم العالية، ومثل أهل بدر ليأخذوا نصيبهم من العلم، ومثل ما يكون -أحيانًا- من تحديد أماكن -مثلًا- في مجلس الذكر للقارئ، فيحدد له مكان فيأتي أحد يجلس مكانه؛

فيقام من مكانه ويقال: "هذا مجلس القارئ الذي يقرأ على الشيخ".

الأمر الثالث: **مسألة القيام للداخل.**

ذكرها بالمناسبة، وذكر أن الأصل: عدم القيام للداخل، إلا لأحوال معينة. وباختصار: متى يقام للداخل؟ أحيانًا يقام له بسبب أن القيام له أوقع لعمله، أوقع للقضاء -مثلًا- أو أوقع لإبقاء كلمته على هؤلاء. هذه المسائل، كما ذكر ابن كثير، تحتاج إلى بحث فقهي خاص. هذه هي الثلاثة أمور التي ذكرها.

قال ابن كثير -رحمه الله- :

وَقَدْ رُوي عن بن عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُمْ قَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ فَافْسَحُوا) يَعْنِي: فِي مَجَالِسِ الْحَرْبِ، قَالُوا: وَمَعْنَى قَوْلِهِ: (وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا) أَيِ: انْهَضُوا لِلْقِتَالِ.

القول الأول: إن هذه هي مجالس العلم.

القول الثاني: إن هذه المجالس مجالس الحرب، ومن ثم يأتي معنى انشزوا يعني: انهضوا للقتال، لكن -والله أعلم- أن القول الأول هو الصحيح والمختار.

وَقَالَ قَتَادَةُ: (وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا) أَيْ: إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى خَيْرٍ فَأَجِيبُوا.

وَقَالَ مُقَاتِلُ [بْنُ حَيَّانَ] إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَارْتَفِعُوا إِلَيْهَا.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: كَانُوا إِذَا كَانُوا عِنْدَ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- فِي بَيْتِهِ فَأَرَادُوا الِانْصِرَافَ أَحَبَّ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ هُوَ آخِرَهُمْ خُرُوجًا مِنْ عِنْدِهِ، فَرُبَّمَا يَشُقُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ-عَلَيْهِ السَّلَامُ-وَقَدْ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ، فَأُمِرُوا أَنَّهُمْ إِذَا أُمِرُوا بِالِانْصِرَافِ أَنْ يَنْصَرِفُوا، كَقَوْلِهِ: (وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا)[1].

الآية فيها أمران:

الأمر الأول: أمر بالتَّفسُّح، يعني: توسعوا في المجالس.

الأمر الثاني: أمرهم الله -عزَّ وجلَّ- بأن يرتفعوا وينهضوا إلى الموضع الذي يؤمرون به حسب الحاجة، يكون النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- موجهًا لهم، أو يكون صاحب المجلس موجهًا لهم، يقول له: "انهض من هنا من أجل أن نتوسع، ارتفعوا في المجالس، انهضوا" فهذا حين يأمركم به النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، أو يأمركم به كبيركم لحاجة تعرض عليه، كونوا مستجيبين له ولا تشعروا بأنه يظلمكم أو يقصر

---

[1] () النور: 28.

في حقكم. ورتب رب العالمين على ذلك شأن عظيم، قال ابن كثير:

وَقَوْلُهُ: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أَيْ: لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُ إِذَا فَسَح أَحَدٌ مِنْكُمْ لِأَخِيهِ إِذَا أَقْبَلَ، أَوْ إِذَا أُمِرَ بِالْخُرُوجِ فَخَرَجَ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي حَقِّهِ، بَلْ هُوَ رِفْعَةٌ وَمَزِيَّةٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُضَيِّعُ ذَلِكَ لَهُ، بَلْ يَجْزِيهِ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لِأَمْرِ اللَّهِ رَفَع اللَّهُ قَدْرَهُ، ونَشَر ذِكْرَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أَيْ: خَبِيرٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ وَبِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ.

هذا الجزاء الذي رُتّب على هذا الأمر لأجل جبر قلوب المؤمنين؛ أنا سبقت وجلست في المجلس وكنت في حال سعة، وعطلت نفسي وتركت أعمالي لأجل أن أكون في مكان مناسب لي، وواسع، ثم تقولون لي: "افسح، وسِّع" وهم قد أتوا متأخرين؟ فيشعر في نفسه أنه أقل قيمة من الداخلين، أو أي شيء من كلام الشياطين التي يمكن أن يلقوها في قلب الإنسان، فرب العالمين أراد أن نتأدب بهذا الأدب وتسلم نفوسنا أيضًا، فأمرنا بهذه الأوامر ورتّب على ارتفاع الإنسان -خاصة- الرفعة؛ فالفسح؛ تفسح يفسح الله لك، وتنشز بمعنى

أن ترتفع أو تقوم لتغير مكانك ربما يحصل سعة أكثر، ماذا يحصل؟ يرفعك الله. يقول ابن كثير: "لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُ إِذَا فَسَح أَحَدٌ مِنْكُمْ لِأَخِيهِ إِذَا أَقْبَلَ، أَوْ إِذَا أُمِرَ بِالْخُرُوجِ فَخَرَجَ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي حَقِّهِ، بَلْ هُوَ رِفْعَةٌ وَمَزِيَّةٌ عِنْدَ اللَّهِ" النشوز: ارتفاع عن المكان الذي كان به الإنسان وجزاؤه من جنس عمله، ماذا سيحصل لك؟ سيرفعك الله لأنك امتثلت أمره الشرعي، ولا تسل عن رفعة الله. يقول ابن كثير: "وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُضَيِّعُ ذَلِكَ لَهُ، بَلْ يَجْزِيهِ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لِأَمْرِ اللَّهِ رَفَع اللَّهُ قَدْرَهُ، ونَشَر ذِكْرَهُ" وكثير من الأحيان يتعرض الإنسان لمثل هذه الأمور اختبارًا له، ينظر الله -عزَّ وجلَّ-: هل يأتمر بالأمر أو لا يأتمر؟ يؤمن بالجزاء أو لا يؤمن؟

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو كَامِلٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ، حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَنِ اسْتَخْلَفْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ قَالَ: اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمُ ابْنَ أَبْزَى. قَالَ: وَمَا ابْنُ أَبْزَى؟ فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا. فَقَالَ عُمَرُ [بْنُ الْخَطَّابِ] اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ، عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَاضٍ. فَقَالَ عُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ -صلَّى الله

عليه وسلَّم- قَدْ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ قَوْمًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ"

وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، بِهِ وَقَدْ ذَكَرْتُ فَضْلَ الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ وَمَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ مُسْتَقْصَاةً فِي شَرْحِ "كِتَابِ الْعِلْمِ" مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

هذا من حسن صنع ابن كثير، أتى بشاهد على أن الله (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)، فكان هذا النموذج قصة مشهورة بين عمر -رضي الله عنه- ونافع ابن عبد الحارث، نافع في زمن عمر يعتبر أمير مكة، وخرج نافع من مكة إلى المدينة وفي طريقه في عسفان قابل عمر بن الخطاب، فلما رآه عمر، السؤال البديهي: من تركت في مكة يتولى أمر الناس؟ قال له: "تركت ابن أبزى" "قَالَ: وَمَا ابْنُ أَبْزَى؟" فهو ليس معروف بالنسبة له، "فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا" فكان الاستغراب من عمر -رضي الله عنه- طبيعي، أن هؤلاء القرشيين من أهل مكة المعروفين، كيف تولي عليهم أحدًا من مواليهم؟ هذا ليس تكبرًا من عمر ولا عنصرية -كما يعبرون اليوم-، بل هذا وضع الإنسان المناسب في المكان المناسب. حين يضع أحدًا لا يقبلونه أو يرونه أقل منهم ستكون النتيجة فساد المجتمع، لكن نافع بن

عبد الحارث بيّن له مزايا ابن أبزى بما يجعل عمر -رضي الله عنه- يقتنع، فقال له: "إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ، عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَاضٍ. " فقال عمر -رضي الله عنه-، لما عرف هذا عن ابن أبزى: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَدْ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ قَوْمًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ"، فهذا الرجل رفعه القرآن، رفعه كتاب الله، رفعه العلم، كان سببًا لرفعه، الله رفعه بهذا.

فهذا الحدث كالشاهد على هذه الآية (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) فهو مولى لكنه ولّي على قرشيين، والسبب: أن رب العالمين يرفع بهذا الكتاب أقوام ويضع به آخرين. نسأل الله -عزَّ وجلَّ- بمنّه وكرمه، أن يجعلنا ممن رُفِع بالقرآن، اللهم آمين.